أكل السحت

ليس فى هذه الحياة من شيء هو أدنى الى الاسفاف وأبعد عن الفضيلة من تجارة التطفل . ولقد أدرك المبشرون بالايمان هذه الحقيقة ادراكا قويما لم يبزهم فيه فيلسوف أو عالم من فلاسفة الارض وعلمائها حتى الآن . فالمرأة البغى تتاجر متطفلة على الشهوات . والســـائل القادر على كسب رزقه يتاجر متطفلا على عاطفة الشفقة . وبائع السلع المزيفة يتاجر متطفلا على الاغراء . والمزيفون للشباب بالاسراف فى الانفعال والشهوة يتاجرون متطفلين على الجهالة وعمى البصيرة وهلم جرا .

هذه مقدمة نقدم بها لكلمة سوف نسوقها فى تطفل الصحافة والصحفيين .

لام على صديق من الاصدقاء الذين أجل فيهم عزة النفس ونبالة القصد ، انى كتبت فى العصور فصلا أرد به على كاتب فى جريدة الاجبشيان غازيت ، نال من المصريين ومقدرتهم الادبية والعلمية ، فأنكر علينا كل شيء حتى مقدرة صحفى من صحفيينا على أن يرزق ما يسد رمقه من مداد قلمه . ثم قضى بأن لا صحافة الا صحافة السوريين ، ولا أدب الا أدبهم ولا علم الا علمهم .الى آخر ما هنا لك من مزاعم وأقوال .

والحقيقة ان مصر قد بليت بطائفة من الناس اتخذوا الصحافة مهنة فلم يتورعوا عن أن يجعلوها فى أول أمرها مغنما تجاريا . وليس لنا أن نعيب عليهم أن تكون تجارتهم الصحفية ناجحة مالياً الى حد ما . ولكن الذى نعيبه عليهم أن يضحوا بكل غرض شريف وكل فضيلة فى سبيل المنزع التجارى . وهذا ما قصدنا اليه فى كلمتنا التى نشرناها فى عصور فبراير الماضى رداً على ذلك الكاتب الذى لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه جاهل مغرض ، أعمته السياسة عن أن يرى الفرق بين مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وبينها فى بداءة القرن العشرين ، ولما يفرط منه ثلاثة عقود من الزمان .

ولقد دار كلامنا فى ذلك المقال على الصحافة السورية الصفراء . ولقد آمن معى ذلك الصديق بعد مناقشة قصيرة انه لا يبرر الخطة التى تتبعها تلك الصحافة ، ولا يرضى عن المنزع التجارى الصرف الذى تنزع اليه ، وعلى الأخص تحليلها لكل محرم ، وتبريرها لكل جريمة ، ما دامت تعود عليها بمال يسد جوفها العميق ، وما هو الا أكل السحت ، وأكل السحت مقيسا به أهدى سبيلا .

كذلك لا يفوتنى أن أذكر هنا انى لا أتعرض بكلامى هذا الى علماء السوريين الذين أفادوا مصر والشرق جميعاً أمثال اليازجى وان كان مبشراً متعصباً فى تبشيره ، والبستانى صاحب الدائرة ، والشدياق الكاتب المعروف ، والرافعى وارسلان ، ثم المغفور له الدكتور صروف الذى ترك بيننا أنبل أثر وأكبر طوال حياته على العلم ينشره ويغذيه بالمقتطف ، خمسينا من الاعوام الطوال ، وقد خلفه فيه من بعده ولله الحمد ، شاب من أسرته لا يقل عنه نبلا فى النفس وسمواً فى النزعة وشجاعة فى العمل وحرية فى الفكر .

لسنا نقصد هؤلاء الذين نجدهم من أعماق قلوبنا ، ونضع أيدينا فى أيديهم متعاونين على البر بهذا الوادى الذى ربانا وغذانا أولا وبالشرق العربى ثانياً ، بل نقصد الى الأبغياء المتطفلين الذين انحطت مداركهم بقدر ما أسفت منازعهم ، وفسدت نياتهم بقدر ما جشعت نفوسهم . وقد نقلوا معهم الى الصحافة المصرية العربية صورة من الصحافة الامريكية القائمة على أخص الطرق الامريكية ، وهى طرق فى سلب العقول والجيوب أشبه بالطرق التى كانت تتبعها العصابات السرية فى العصور الوسطى ، أو جمعية « الكلوكلوكسكلان » الامريكية التى تمثل روح التطفل الحديث والاجرام فى أمريكا ، بقدر ما تمثله الصحافة السورية الصفراء فى مصر .

« قد عاب علينا كثير من الاجانب اننا لم نقم بجانب الصحافة السورية صحافة مصرية ثبتت من الجانب التجارى . ذلك لانهم لا يجرؤون على أن يقولوا ان صحافة مصر البحتة لم تقو على الثبات بجانب صحافة مصر السورية من الجانب الادبى أو العلمى . على أن الذين يعيبون علينا هذا الامر يغفلون دائما عن اننا أعجز من أن نجاريهم فى التغرير بشباب مصر وأكل السحت من وراء اللعب بأهوائه وايقاظ شهواته وبعث انفعالاته ، ونحن انما نريد بما نكتب أن نغرس فيه روح الفضيلة وحرية الفكر والضمير . يغفلون عن اننا غير قادرين اشفاقا ورحمة ببلادنا وبشبابها وشيبها أن نتهمهم فى عقليتهم وأن نطعنهم فى قوة تمييزهم ، فننشر لهم أسخف السخف وننزل بهم الى أحط الدركات ، ثم نقول كما يقول أصحاب الصحافة الصفراء ، الجمهور لا يفهم ، الجمهور جاهل ، الجمهور زلط أصم أبكم ، الجمهور منصرف الى السفاسف دون الغايات العليا ، الجمهور مغفل ، هذه الامة حمقاء ، وهذا كله تلقاء الالوف المؤلفة من الاصفر الرنان التى يدفعها هذا الجمهور المسكين ثمنا لهذا السلب العلنى !!!

انى أهيب بكل صحفى مصرى خدم مع أصحاب الصحف السورية

الصفراء ، وأظن أن جلهم فيهم من الشجاعة مايكفى للصارحة ، أليس هذا هو ما يسمع فى هذه الأمة من أفواه أولئك المتاجرين على حساب هذه الأمة ، وعلى حساب سخائها وأفراطها فى حسن النية وتقبل مايقدم اليها من الغذاء الفكرى المزوق الظاهر المسموم الباطن . لقد سمعت من كثيرين منهم أن أحد أصحاب هذه الصحافة الجهلاء الذين لا يفهمون من أمور هذه الدنيا أكثر مما تفهم آلة من آلات الطباعة التى اشتراها بعشرة آلاف من الجنيهات التى جمعها من جيب الجمهور المصرى المغفل الأحمق على حد قوله ، كثيراً ما ينصح الى محرريه أن ينزلوا الى مستوى الجمهور ، فيخفف من عباراته ، ثم يخفف من معانيه ، ثم يخفف من مواضيعه ، ثم يدرس اللغة وقواعدها ومفرداتها ، ثم يكتب بالعامية الفحة ، كل هذا تحت تأثير فكرة النزول الى مستوى الجماهير ، حتى إذا وصل المحرر الى حد أن يكتب له — « عمك شنطح جالك ينطح تديلو إيه » — قال له وصلت الى مستوى العقلية المصرية . أليس هذا أكبر البلاء ؟ أليس هذا أحط ما تبلغ اليه الدعارة وينزل اليه البغى ؟ أليس هذا أبعد حد تستباح به الأمم إذ تمتهن عياناً جهاراً فى عقيلتها وبرامتها ؟ ولكن لهم الحق فالأمة تملأ جيوبهم وتشبع بطونهم الشبيهة بالهاوية الجهنمية ، فلا يسعهم إلا أن يشبعوها سباً ولعناً وتحقيراً . هـــذا هو الجزاء الحق . ولكنه مع الأسف ليس من جنس العمل

أما الحقيقة فعلى الضد مما يقولون . فالجمهور المصرى فهيم راشد يعرف الغث من السمين ، ولكنه مع الأسف الشديد ككل جمهور تغره الكلمات الحلوة ، وترضيه المدائح الطنانة . وهذا هو قناع التطفل الذى تلبسه هذه الصحافة ، فهي صحافة مصرية للمصريين شعارها الى الأمام على الدوام ، وما الجهـــل إلا جهلهم ، وما العماية إلا عمايتهم ، وما السفاسف الى سفاسفهم ، وما التغفيل إلا تغفيلهم ، وما الحمق إلا حمقهم ، وما الدعارة الصحفية التى ينشرونها إلا دعارتهم ، وما البغى المشروع الذى يسرقون به أموال الأمة تلقاء صحف سوداء الباطن والظاهر إلا بغيهم . وما خرج فى جوف هذا الوادى من ريح أنتنه إلا وكان فى أفواههم ، ولا سنت شرعة خبيثة إلا وكانوا أول واضعى دعائمها ومروجي شعائرها ، ولا نشرت صور الباغيات على أنهن سيدات مصونات ، ولا الراقصات العاريات على أنهن من زعيمات الفن العالمى ، ولا صيد الفتيان للفتيات فى اليم على بعض شواطىء أوروبا الاباحية على صورة يحمر لها وجه الأدب والذين يعرفون ما هو الأدب ، ولا أذيعت رذيلة الغش فى الامتحانات

لتعلمها أولادنا ، ولاحي التنجيم ليصبح من معتقدات نشئنا ، ولا عرفت طريقة الاجرام والقتل وسفك الدماء علناً منشوراً ، ولا عرفت دروس عملية فى غلظة القلب وفناء كل الصفات البشرية ممثلة فى شخصية عشماوى الجلاد ، ولا عرفنا وجه أصحاب الدعارة فى بؤر الفساد والبغي، ولا سرد علينا شيء من مكائد المومسات لرفقائهن من الساقطين ، إلاوكانت هذه الصحافة المجلوة فى آخر ثوب أمريكى ، على مايقولون، أول من نشرها وأول من غرس أصولها فى صحافتنا القومية . وهى بعد كل هذا صحافة مصرية للمصريين ، وشعارها الى الامام على الدوام - كلا . بل الى الهاوية التى تحفرها هذه الصحافة تحت أقدام أولادنا وفلذات أكبادنا . بل أمام مستقبلنا العالمى ، ومركزنا فى الحضارة .

هل عرف المصريون شيئاً من هذا ينشر علناً ويلقى على الشباب باعتباره ادباً عصرياً ، ويالبئس هذا الأدب . ويالبئس المؤدبون ، إلا على يد هذه الصحافة السورية الصفراء ، التى جاراهم فيها لفيف من ذؤبان الصحفيين ودهمائهم ، من الذين أخذتهم عدوى التطفل الامريكية ؟ على أن للمصريين من متطفلى الصحفيين بعض العذر ، فقد رأوا السبيل ممهوداً والطريق معبداً فسلكوه كما سلك آباؤنا طريق المعصية بعد أن شرع سنتها ملك من ملائكة الله .

ياعجبا ! الهذا المجد من البغى بلغ بهؤلاء الطمع والجشع ، وساغ لهم أكل السحت على أكتاف أمة برمتها ؟ أذكر منذ سنتين انى قرأت فى جريده « الاوبزرفر » الانجليزية مقالة بقلم محررها الفذ مستر « جارفن » الذى يعترف له صحافيو العالم بأنه من أعظم الصحفيين الذين ظهروا خلال كل الازمان وعلى اطلاق القول ، جاء فيها أن الصحافة الانجليزية على جلال قدرها وعظمتها وأثرها ورقيها ونبلها ، بدأت تنحط وتتدهور ! ولماذا ؟ لأن شركة يعرف أصحابها بالمتاجرة على حساب التطفل الصحفى قد فاوضت فى شراء جريدة من الجرائد الكبرى ! ياعجبا مرة أخرى ! أمن المفاوضة فى شراء جريدة لشركة يعرف فى أصحابها هذه الصفة ، يعنى « جارفن » الصحافة الانجليزية ، ويقول فيها انها بدأت تنحط وتتدهور وأن جراثيم الانحلال أخذت تدب فى هيكلها التقليدى ؟ وماذا يكون حكم مستر « جارفن » اذا تمت الصفقة لهذه الشركة ؟ ولكن الصفقة لم تتم ، ذلك لان نبل أصحاب الجريدة وسمو منازعهم قد حال دون ذلك ، ففضلوا الخسارة المادية ولو أفلسوا ، على أن يلقوا بجريدة انجليزية لها تقاليدها التاريخية فى يد شركة شأنها التطفل الصحفى على أجسام الناس . أما فى مصر فاعكس هذه الآيه وأنت تقع على القاعدة . القاعدة التى دعمها وشيد من فوقها الصرح الاشمخ للتطفل الصحفى ، سوريون من أصحاب الجرائد الصفراء .

والتجارة من بعد هذا كله حرة . نعم حرة والف مرة حرة . ولكنا مع هذا نقول بان ليست كل تجارة حرة تكون شريفة . وليست كل تجارة تكون مصرية للمصريين وليست كل تجارة تكون الى الامام على الدوام . وهل هنا لك تجارة يكون وجه الكسب فيها مضمون مائة فى المائة ، ووجه الخسارة معدوم بالمرة ، الا تجارة لاتتفق وضرورات الحياة ، كتجارة المخدرات والتعاطى فى تهريب السموم البيضاء . تجارة تشترى بضاعتها الشهوات ، وتستهلك موادها الانفعالات ونزعات النفس الشيطانية والعياذ بالله .

على اننا لا نبالغ ولا نغالى اذا قلنا بأن هذه الصحافة الصفراء يجب أن تصادر كما تصادر المهربات . فلعمرك أيها أشد اجراما ، سفاك يقتل شخصا انتقاما أو طمعا ، أم مخفى يقتل الشباب كله و يستغويه و ينعش فيه الشهوة بعد أن يستتر وراء قناع الأدب و يوقظ فيه الانفعال بعد أن يستخفى وراء ستار الفضيلة ؟

والدليل الأكبر على هذا أن هذه الصحافة لا دعوة تدعو اليها ولا مبدأ تحترم من أجله ولا مذهب تنتمى اليه . فلاى شيء وجدت ومن أجل أى غرض تصدر !!! لغرض واحد . ملء الجيوب على حساب الآداب والفضائل . وبعد هذا هى صحافة مصرية للمصريين ، وشعارها الى الامام على الدوام . فعلى المصريين عارها ، ولاصحابها ثمراتها المادية .

ولست أدرى أصيحة جادة تلك الصيحة التى ارتفعت هذه الأيام منادية بالدفاع عن التجديد أم هازلة ؟ أغلب ظنى انها هازلة . لانها لوكانت جادة حقيقة لكان النظر فى أمر هذه الصحافة والدعوة ضدها أحد مراميها . ولكن السم يتسلل فى عقول النشء والخرافات تدس عليهم والشهوات توقظ فى نفوسهم تحت عنوان حرية التجارة ، وحرية القول والنشر .

أيكون هذا كله فى مصر ، ثم يحرم على مصرى أن يقول فيه كلمة حق أو ينفس عن صدره بشيء يكتبه ؟ فاذا فعل كان المقتر على الضيوف الرامى عن قوس الغرض فيما يقول ، الحقود الذى لا ذمة له ، الحسود الذى يود لو أن مال غيره ذهب اليه !

بهذا يقول أصحاب الصحافة الصفراء . الا فليقولوا ما يشاؤون . فصحافتهم صفراء ولو جرت فيها دماء شهداء الحرب العظمى كلهم . ونحن ناقدوها مروجون ضدها داعون الى مقاطعتها ناعتوها بما تستحق من النعوت عاملون على أن ندفع بعض سيئاتها بما نضحى فى سبيل مصر وفى سبيل العلم والأدب .

اسماعيل مظهر